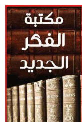
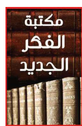
مجنون يتحدى القدر




مكتبة
الفكر
الجديد

مقدمة موجزة

في بدايات كتاباتي للمسرح. لم أكن أفكر إلا باصطياد الأفكار التي تمس الناس من قريب أو بعيد، وأنا في كل ما أكتب اسخر من الواقع الرديئ المرفوض. أشير إليه بشيء من المبالغة كي اقرب الصورة وارسم التناقض بين ما هو كائن وما يجب أن يكون، ومع هذا التصور والتصوير لخلق حالة من الهزل المرّ في أكثر من موقع أو موقف.. ولم أكن اعرف آنذاك وأنا في بداية الخمسينات (الكوميديا السوداء) أو ما اشبه.

كانت الأفكار تتزاحم عندي واقف أمام بعض منها مكتوف اليدين لا أستطيع الإمساك بالقلم كي اعبّر عنها من خلال مسرحية اكتبها او فصل تمثيلي يجسد تلك الأفكار، لقد كانت قدرتي آنذاك عاجزة عن استلهام رسائل الإعداد الفني المتلائم مع الصيغ المسرحية المطلوبة أو الذي يوفق بين هذه الأفكار وبين الشكل الذي يمكن من خلاله التعبير عنها -أي الأفكار -.

واحدة من تلك الحالات التي اختزنتها في نفسي ذلك العجز الذي يحسه الإنسان أحياناً أمام ما يحيط به ليظل متسائلا لماذا يحدث هذا؟ وان الإنسان قاصر عن ان يفسر أسباب هذه الظواهر المؤسية والمؤلمة؟ أم أن قوة متسلطة عليه تشلّ طاقة إدراكه لجوهر مأساته؟

في ذلك الوقت ورغم إدراكي واتساع ما اقرأ من الفكر العلمي الذي أودت به قارئاً وباحثاً على قدر طاقتي.. كنت أعاني أنا شخصياً من أيلام وتساؤلات اطرحها أنا على نفسي.. فمع الرفاهية التي عشت فيها صغيرا ظلت لفترة طويلة من الزمن وفي أوقات لا ادري كيف تقع في إسارها.. أحس بأنني ورغم تجاوز سن الطفولة بحاجة إلى حنان "الأم" فقد فقدتها وأنا تلميذ في الصف الثاني الابتدائي.. ثم فقدت ابنة أختي التي ربتني صغيراً وأنا طالب في كلية الحقوق.. لكن حبي الكبير لها جعلني أحس بجسامة فقدها بالرغم من أنها كانت بعيدة عني لا أراها إلا قليلاً حالة من الرومانسية تُجسّم الأشياء وترسم ظلال العتمة حتى الاختناق.. فيظل منطق العقل على طرف متفرجا أو هكذا كنا نريد له أن يكون!

في درس "علم النفس" الذي كان يدرسنا إياه الأستاذ أحمد محمد خليفة. وهو اليوم الدكتور احمد محمد خليفة أستاذي وصديق العمر رئيس المركز الإقليمي العربي لبحوث العلوم الاجتماعية والذي اشغل وزارة الشؤون الاجتماعية والأوقاف في زمن الزعيم الراحل جمال عبد الناصر. أقول من خلال هذا الدرس الذي عشقته وأحببته وزاد في تعلقي به والغوص في أعماق سطوره. أستاذي احمد محمد خليفة بقدرته الفائقة وشخصيته الساحرة في إيضاح ما يعسر عملنا وترغيبنا في معرفة كل ما يريد في محاضراته المكثفة والمشوقة والتي تحمل دلالات علمية جديدة علينا.. هذا الدرس أوحى لي بشخصية مصابة بمرض الكآبة يتمثل الأشياء يراها أمامه وهي غير موجودة إلا في مخيلته.. لقد أحببت هذه الشخصية وتمنيت لو مثلتها على المسرح.. هكذا كانت بداية التصور والرغبة في ان اكتبها أو أصورها. أي الشخصية مسرحيا.

المرحلة الثانية إنني تمثلتها تحمل معاناة تساؤلاتي التي أشرت إليها، وأنها تحاسب من تسبب في مأساة إنساننا.. تقف أمامه مسرحيا، تحاكيه تحاكمه، تتحداه. وتمثلت ان هذا الشخص الموهوم الموجود هو القدر، وبدأت اكتب.. لم أكن اعرف _آنذاك _مسرحا اسمه (مسرح اللامعقول) ولا مسرحية هي (مونو دراما) ولا تمثيلاً هو (الممثل الواحد).. لم أكن اعرف شيئاً عن هذا كله، بل ان الأستاذ إبراهيم جلال كتب لي حين كان يدرس في الولايات المتحدة بداية الستينات يقول: أتدري يا يوسف ان مسرحيتك "مجنون يتحدى القدر" هي واحدة من مسرح اللامعقول؟!

لا أريد هنا أن انسب هذه المحاولة التي كتبتها بتاريخ ١٩٤٩/٦/١٩ وقدمتها على المسرح بتاريخ ١٩٥٠/٢/٣ إلى مدرسة من المدارس أو نموذجا من النماذج المسرحية.. لكن مسرحنا العراقي قدّم هذه المسرحية كما يلي:

قمت أنا بتمثيل دور (المجنون)

اخرج المسرحية (خليل شوقي)

صوت القدر مثله (خليل شوقي)

وتولى إدارة المسرحية وتصميم الديكور خليل شوقي نفسه وقدمت المسرحية من قبل (جمعية جبر الخواطر) في كلية الحقوق. على مسرح معهد الفنون الجميلة في بغداد.

إنني حينما أعود إلى قراءتها اكتشف كم كانت محاولاتنا جريئة وجميلة.. وكم كانت في مضمونها ساذجة وبسيطة. ومع هذه الجرأة والسذاجة ترتسم أمامي تلك الرغبة والحماس في اكتشاف حالات جديدة

لم نكن نألفها ولا نعرفها. لنتجاوز ودون أن ندري أيضاً مراحل أخرى يدّعي أصحابها الريادة والتجديد المتطور بعد أن يكونوا قد اكتشفوها أو عرفوها.

وهذه المسرحية التي كتبت وقدمت على المسرح يوم ٣/٢/١٩٥٠ ـ كما ذكرت ـ هي أول مسرحية (المونو دراما) تقدّم في الساحة المسرحية العربية عموما.. فما لدينا من وثائق يؤكد ريادة مسرحنا العراقي في هذا المجال ورغم تواضع المحاولة وبساطتها.

إننا نسجّل هذا الحدث المسرحي وننشر النص كما كتب حقيقة وتاريخا وذكرى كانت ومازالت عزيزة على المسرحيين الذين عاصروا تلك الفترة وساروا في مسارها الجاد والمبدع.

نسجّلها خشية ان تضيع في متاهات النسيان عن قصد أو دون قصد. والحمد لله الذي أبقى لنا في ذاكرتنا وبصيرتنا خزين الحقيقة الذي يرفع البراقع ليشير إلى المواقع الضار منها والنافع!!

شخصيات المسرحية

- المجنون
- صوت القدر، يأتي من بعيد ليقترب!

المنظر

قاعة من قاعات مستشفى المجانين المظلمة.. مجنون نحيف القوام.. رث الثياب، أشعث الشعر، جالس في ركن ليس ببعيد..

المجنون *(في حرارة)* قدر.. قدر.. كل ما حل بي من القدر! ما هذا القدر؟ ليته يكون إنساناً لانتقمت منه شرّ انتقام.. ما أحقرك أيها القدر وأسخفك.. وما اشد خطرك.. خطفت مني ولدي وزوجتي وحرمتني صديقاً عزيزاً عليّ ونكدت عيشي.. وأنت أين؟ من أنت؟ لا أعلم، لا أعلم! تعال أيها القدر تعال.. اهبط إليّ، اهبط *(وصرخ عاليا)*

(أصوات مرتفعة تتعالى من مصدر مجهول.. تطفأ الأنوار فيزداد ظلام المسرح، وتتعالى الأصوات ممزوجة بموسيقى صاخبة وضحكات عالية ساخرة.. المجنون خائف لا يدري مصدر الأصوات، فينتقل من مكان لآخر، خائفا مضطربا..)

"القطعة الموسيقية volca in the night"

المجـــــون: *(بعد أن تهدأ الأصوات)* من؟ من؟.. من أنت من أنت أيها..

القـــــدر: أنا.. أنا.. أنا القدر *(ضاحكا)*

المجـــنـــون: القدر؟!

لم جئت إلى هنا؟

القـــــدر: لأنك أردتني لتتحداني!

المجــــون: ولكن كيف جئت؟

القــــدر: جئت.. لأنني.. لأنني.. انا القدر

(يضحك)

المجــــون: أنت ماذا؟ إنسان؟

القــــدر: اهذا يهمّك؟

المجــــون: يهمني جدا..

القــــدر: *(ساخرا)* إلى هذا الحد.. إذن فهاك حقيقتي ولا تلحّ بعد هذا بالسؤال.. إنني.. إنني.. أنا القدر! *(يضحك)*

المجــــون: *(متبرما)* قل من أنت أيها القاسي..

القــــدر: أنا الساخر منك.. الهازئ بك.. الضاحك عليك

المجــــون: ولكن.. لم كل ذلك؟! تسخر وتضحك وتهزأ؟!

القــــدر: لأنني أنا القدر

المجــــون: ما أقساك.. ما أقساك

القــــدر: مسكين أنت.. إنني اسخر واضحك وأهزأ.. لأنني أريد أن نلهو

المجــــون: نلهو.. لأجل أن تلهو أنت يشقى العالم!

القــــدر: لم لا؟

المجــــون: لقد كرهك الناس وسئموك

القــــدر: ولكنني أحبهم

المجــــون: تحبهم؟ حاشا أن يعرف الحب قلبك..

القــــدر: الحب؟.. لم لا؟ لقد جربت العشق ايضا..

المجـــنــــون: أنت تعشق.. تعشق من؟

الـقـــــــدر: أعشق ضحاياي!! *(يضحك)*

المجـــنــــون: ما أبشعك

الـقـــــــدر: أجمل ما عندي بشاعتي أيها الأبله..

(يضحك)

المجـــنــــون: لقد بطشت بي.. وحطمت حياتي الهنيئة..

وسكبت عليّ وتركتني أعاني من الحياة المرّ والويل

والهوان..

ألست الفاعل بي كل هذا؟

الـقـــــــدر: طبعا.. *(يضحك)*

المجـــنــــون: أريد مقاضاتك إذن..

الـقـــــــدر: تقاضيني؟ ياللعجب؟

المجـــنــــون: ولم العجب؟ الست الظالم وأنا المظلوم؟

ألست الطاغي وأنا الضعيف؟

ألست المسرور وأنا المكروب؟

الـقـــــــدر: ولكنني أنا القدر!!

المجـــنــــون: القدر.. القدر.. ما أثقل هذه الكلمة على

سمعي.. أريد مقاضاتك.. أريد مقاضاتك..

الـقـــــــدر: قاضني ولا تغضب

المجـــنــــون: ومن يكون القاضي؟

الـقـــــــدر: القدر طبعا!

المجـــنــــون: آه يا ظالم.. كيف يكون القاضي هو المجرم؟

القـــــدر: ومن فينا المجرم؟

المجـــنـــون: أنت

القـــــدر: ولكنك لم تثبت إدانتي بعد.. إنني متهم فقط.. قل لي ما هي اتهاماتك؟

المجـــنـــون: اتهمك بموت ولدي الكبير..

القـــــدر: وكيف تثبت ادعاءك هذا؟

المجـــنـــون: إنه ادعاء لا يحتاج إلى دليل..

القـــــدر: إنني اعترف بذلك، ولكن كيف علمت انني أنا المسبب؟

المجـــنـــون: لقد مات ولدي الكبير ولا أدري كيف مات.. وحين سألت عن السبب قيل لي..
قدر.. لم فعلت
ذلك لم..

القـــــدر: قلت لك أريد أن الهو..

المجـــنـــون: ولكن لم لم تختر مجرما مضطربا أو فاجرا خليعا.. لم تترك هؤلاء؟

القـــــدر: لأنني أخشاهم

المجـــنـــون: فأنت جبان إذن..

القـــــدر: قل ما تشاء.. فأنا منصت إليك

المجـــنـــون: ألست السبب في اختطاف زوجتي الحبيبة؟.. لقد اشعلت فيها النيران، تركتها رمادا.. ولكن كيف.. ولماذا؟ قيل لي القدر.. آه.. ما اقساك.. ما اقساك.

لم لم تختر امها الخرقاء وقد هددها الكبر حتى العظم

القـــــدر: أنا حر في تصرفاتي

المجــــون: وهذا صديقي وزميلي الشاب.. اختطفته وطويته على عجل ودفنت معه أحلاما عذاباً طالما رفت في مخيلته.
لم لم تختر أهله وذويه وأصدقاءه. أما في قلبك رحمة؟

القـــــدر: رحمة؟.. وما هي الرحمة؟..
كلمة لا اعرف معناها!

المجــــون: حقاً انك فنان بشع ظالم.. تتفنن في اختيار الوسائل لتصل إلى غايتك، وها انك استعملت وسيلة جديدة مع صديقي هذا *(ساخراً)* ها.. الكهرباء. الكهرباء.. ياله من سلاح جديد..

القـــــدر: *(يضحك)*.. أنه سلاح القرن العشرين!

المجــــون: إنني احتقرك.. احتقرك ولا أخشاك..
سأنتقم منك.. *(يحاول المجنون الهجوم على مصادر الصوت)*

القـــــدر: *(يصرخ في وجه المجنون صرخة عالية توقفه في مكان دون حراك)*..

المجــــون: *(يكلم نفسه)* مازلت أخافك أيها القدر..
ولكن لماذا؟ لماذا؟.. سأنتهز الفرصة عمّا قريب للبطش بك أيها الجبان *(يجلس محطما)*

القـــــدر: *(صوت القدر يتعالى من أكثر من موقع)*..
كم يحلو لي انك بحالتك الجميلة هذه.. وكل دمعة

تخرج من بين جفنيك، قطرة تسكب فوق قلبي فتروي ما فيه من غلة وتطفئ ما به من نار. كم أنا بشقائك.. فرح بعذابك.. خلي بشجوك. أنا سعيد، فليشق الجميع *(يضحك)*

المجنـــون: تضحك؟.. مازلت لا أفهمك

القــــدر: قلت لك إنني القدر.. حقاً انك غبي.. هل لك تهم أخرى؟

المجنـــون: تهم لا تعد ولا تحصى

القــــدر: وما هي؟

المجنـــون: اتهمك بأنك عاطل

القــــدر: عاطل؟ اللهو صناعتي.. والسخرية تجارتي.. والغواية براعتي!

المجنـــون: يا الهي.. أكاد أجنّ..

القــــدر: *(بسخرية)* تجن؟ وهل فيك بقية من عقل حتى تجنّ؟

المجنـــون: *(يسكت)*..

القــــدر: ألست تدري ان على المدّعى إحضار شهوده.. فمن هم شهود إثباتك؟

المجنـــون: لم الشهود وقد اعترفت بكل اتهاماتي؟

القــــدر: ولكنني أنا..

المجنـــون: *(ثائراً)*.. أنت.. أنت.. أنت

"أشباح على الحائط.. تذوب بعد قليل، تمثل نماذج من المجانين"..

القـــــدر: اهذا أحد شهودك؟

المجـنــون: لا أدري ربما كان أحد ضحاياك!!

القـــــدر: ها.. لقد عزّ عليك الشهود.. وستخسر الدعوى

المجـنــون: لا يثبت لي حق ولن اربح قضية ما دمت حيا.. ليتك تموت

القـــــدر: أموت؟.. أنا الموت!!

المجـنــون: *(يحرك رأسه علامة الاستغراب)..*

القـــــدر: سأصدر عليك حكمي بالخسران

المجـنــون: حكمك؟.. لن اعترف بمحكمة أنت حاكمها، ولا بقرار أنت تصدره..

القـــــدر: لقد أصدرت عليك حكمي، ولا يهمّني أرضيت به أم لم ترضى! والآن جاء دوري في مقاضاتك..

المجـنــون: أنت تقاضيني؟ بالسخرية

القـــــدر: هبها ما شئت.. ولكنني سأقاضيك

المجـنــون: *(يضحك..)*

القـــــدر: لو قدّر لك أن تكون أنت القدر فما الذي أنت فاعله؟

المجـنــون: لن افعل الذي تفعله مطلقاً..

القـــــدر: امتأكد أنت من ذلك؟

المجـنــون: طبعاً متأكد

القـــــدر: هل تحسب نفسك بريئاً لم تجرم في حياتك قط؟

المجـنــون: نعم.. انني لم أجرم في حياتي

القـــــدر: *(يضحك ساخراً..)*

هل فكرت يوماً وأنت تسير في طريقك كم من
الحيوانات الدنيا التي تدب في الأرض تميت؟

المجـــنـــون: *(يهم بالجواب)*

القـــــــدر: لم يخطر ببالك هذا الخاطر.. أليس كذلك؟

المجـــنـــون: ولكن..

القـــــــدر: لا تحاول التهرب

المجـــنـــون: ولكن هذه الحيوانات لا تحس؟

القـــــــدر: ومن أدراك بأنها لا تحس؟

المجـــنـــون: *(واقفاً)* لأنني لا أعلم بأنها تحس وتشعر..
أما أنت فتدري بالآلام التي تسببها أفعالك لنا،
وتقدم عليها دون رحمة ولا شفقة..

القـــــــدر: إذا كان هذا وجه اتهامك فكان الأجدر بك أن تقاضي
هؤلاء الظالمين من بني جنسك..

المجـــنـــون: لا يهمني هؤلاء.. لا أريد مقاضاتهم

القـــــــدر: بيد انني سأقاضيك بنفسي، لأنك منهم..

المجـــنـــون: أنا.. أنا لست ظالماً.

القـــــــدر: كلكم سواسية.. تنشدون العدل وتظلمون.. وتبنون
الصلاح وتفسدون.. كل منكم يضع اللوم على غيره،
ناسياً أنه شريكه.. لقد فسد المجتمع بفسادكم،
وأوشك العالم أن يفسد.. لولا بقية من نور..
اجبني.. ألست واحداً من هؤلاء الناس؟

المجـــنـــون: ولكن..

القـــــدر: انظر.. كيف يسقي الإنسان الموت أخاه الإنسان؟
اتذكر ذلك.. هذه الحروب.. هذه المطاحن...
نزوة في نفس أحدكم كفيلة بأبادة شعب بأكمله..
انظر.. هذا الظلم.. هذا الاستعباد..
أأنا الذي انتزعت من قلوبهم الرأفة والرحمة؟
أأنا الذي سلبت من نفوسهم الإخاء والحب؟
أأنا الذي خلعت عنهم ثوب العدل والمساواة؟
لقد أراد الإنسان ذلك فكان له ما أراد!
وأنت تتهمني بأني المجرم الوحيد، ناسياً أن الإنسان هو المجرم الأول..

المجـــنـــون: لا.. أنت المجرم الأول والأخير..

القـــــدر: وهل تعتقد أيها الأبله.. إنك تستطيع العيش سعيداً لو أني كففت عن أعمالي؟

المجـــنـــون: طبعاً

القـــــدر: هيهات.. هيهات.. فأمامك الحس والطمع والجشع.. والحقد.. هؤلاء بنو جنسك!

المجـــنـــون: ولكنني لست منهم..

القـــــدر: ها لقد تجردت عن آدميتك بهذه العجالة

المجـــنـــون: كفى.. كفى..
(يجلس كالمحطم والقدر يضحك..)

القـــــدر: *(بعد قليل)* اسمع يا.. حقاً ما اسمك؟

المجـــنـــون: اسمي.. اسمي.. سعيد!

القـــــدر: أسمع أيها السعيد.. دعنا نتفاهم

المجـــنـــون: مستحيل أن نتفاهم

القـــــدر: مستحيل.. لا مستحيل تحت الشمس..
ألست تدري؟

المجـــنـــون: قل ما عندك إذاً..

القـــــدر: (يقترب منه) لم لا تكون شريكي؟

المجـــنـــون: شريكك.. بماذا؟

القـــــدر: شريكي بأفعالي..

المجـــنـــون: شريك بأفعالك.. أأكون شريك مجرم بجريمته..
كيف أطلب الرحمة وأنا شريك القسوة؟
كيف أرجو العدل وأنا شريك الظلم؟
اذهب.. اذهب.. عليك اللعنة

القـــــدر: إذن دعنا نعقد الصلح..

المجـــنـــون: كيف؟

القـــــدر: اتركني ألهو ولا تعكر صفو انسي..
أما أنت فسأتركك وشأنك

المجـــنـــون: تتركني وشأني؟.. وهل أبقيت لي شأنا؟
وهل تركت دورا من أدوارك العنيفة دون أن تمثلها
على مسرح حياتي؟ اذهب.. اذهب..
فلن تستطيع أن تفعل بي أكثر مما فعلت

القـــــدر: ولكني أستطيع شيئاً آخر أيها المجنون..

المجـــنـــون: ها.. مجنون انك تحسب كل من يتحداك مجنوناً

القـــــدر: يا لك من جاحد.. لقد بدأت تنكر نعمتي عليك، لقد أعطيتك نعمة الجنون.. تلك التي خففت من شقائك والآن أستطيع أن أرجع إليك العقل.. بل أعطيك حساً مرهفاً تشقى به وتتألم.. لا تفوتك مأساة من مآسي الحياة، فتشقى بها وتشقى بحسك..

المجـــنون: لقد جربت كل المصائب

القـــــدر: شقاء الإنسان ليس بقدر المصائب.. بل بالإحساس بها

المجـــنون: لا أفهم ما تقول

القـــــدر: لأنك مجنون!.. وأستطيع أن أزيد شقاءك شقاءً آخر.. أتدري كيف.. أعطيك مجداً فيكثر حاسدوك وأعداؤك ويزداد عذابك وشقاؤك.. بل أستطيع أكثر وأكثر.. ها.. ما رأيك؟ أما أستطيع..

المجـــنون: *(وقد بدت عليه علامات الخوف)* قلت لك لن تستطيع.. اخرج.. اخرج..

القـــــدر: *(ضاحكاً)* ولكنني أستطيع..

المجـــنون: *(صارخاً)* لن تستطيع..

القـــــدر: *(يهم بالخروج حيث يبتعد الصوت)* ستبدي لك الأيام.. ستبدي لك الأيام

المجـــنون: *(يحدث نفسه)*

ستبدي لي الأيام.. ماذا.. ماذا؟

(يهجم على القدر ليلقيه أرضاً وهو يصيح) لقد مسكت بك سأنتقم منك.. سأنتقم منك!

"تطفأ الأنوار بالتدريج وصوت المجنون مازال ينادي
سأنتقم منك.. ثم يُنار المسرح ثانية.. وإذا بالمجنون
وحيداً وإذا بالقدر خيال لا وجود له!!"..
آه.. أين أنت؟.. أين..
"مع نفسه وكأنه يخاطب الناس" لقد أردت أن انتقم
من القدر.. ولكنه سخر مني:
"يضرب على الأرض.. ويصرخ مع قهقهات عالية"..

- موسيقى -

/ستار/